مقام إيران فى تاريخ الفنون

قدّر لبعض الشعوب أن يكون لها فى تاريخ المدنية شأن خطير، وأن تكون فى ميدان الفنون إماما ينسج الآخرون على منواله و يقتفون أثره . وعلى رأس تلك الشعوب الاغريق والإيرانيون وأهل الصين .

أما الاغريق فقد تركزت على يدهم الأساليب الفنية الكلاسيكية، التى قامت على أسسها الفنون الغربية . وكذلك امتد نفوذ الأساليب الفنية الصينية فى ربوع آسيا، ولم ينج من تأثيرها فن فى تلك القارة المترامية الأطراف . بينما كانت إيران ملتقى الفنون القديمة فى الشرق الأدنى، ونمت فيها أساليب فنية، تأثرت بفنون بابل وأشور ومصر والهند وبلاد اليونان، وانتشرت فى العصور القديمة والعصور الوسطى، وأثرت فى فنون الأمم الأخرى .

و إنّا، اذا استثنينا الفن الاغريق القديم، لا نكاد نعرف أى فن آخر، قدّر له أن يمتد امتداد الفن الايرانى، بل إننا نستطيع أن نقول فى ثقة واطمئنان إنه ليس هناك فن عظيم لم يأخذ عن الفن الإيرانى شيئا من زخارفه أو أساليبه ؛ فان الفن المصرى القديم، والفنون الاغريقية، والرومانية، والبيزنطية، والصينية، والهندية، كلها مدينة للفن الايرانى ببعض أشكال التحف، أو أساليب العمارة والزخرفة، أو أسرار الصناعات الفنية الدقيقة .

والواقع أن هذه العظمة الفنية فى إيران وليدة السيادة فى ميادين الحرب والسياسة والمدنية؛ فقد كان الايرانيون والاغريق يقتسمون الحكم فى العالم القديم حينا من الزمان . ولما فكّر الاسكندر الأكبر فى تأسيس

امبراطورية تضم بلاد الشرق الأدنى تحت لواء الاغريق، اتجه نظره الى إيران ليتخذها مركز هذه الامبراطورية؛ ولكنه مات قبل أن يظفر بتنفيذ مشروعه العظيم ، بيـد أن حروبه فى الشرق الأدنى مهدت السـبل لنشر الثقـافة الاغريقية فيـه ؛ فأضحت إيران وأفغانستان حينا من الزمن ملتقى الأساليب الفنية الايرانيـة والاغريقية والهنـدية، بل كان أثر الثقافة الاغريقية غالبا فى الأجزاء الاغريقيـة من الهضبة الايرانيـة ، وهى الأقاليم التى كان يحكمها الأمراء الاغريق الذين آلت إليهم امبراطورية الاسكندر .

واستولت على مقاليـد الحكم فى إيران منـذ سنة ٢٢٤ ميلادية دولة بنى ساسان؛ ووحد ملوكها الشعب الإيرانى؛ وقضوا السنين الطويلة فى حروب ومناوشات مع الدولة البيزنطية فى الغرب ، والأقوام الرحّل الذين كانوا يشنون الغارات على الحدود الايرانية فى الشرق أو الشمال. وبين الذين خلدتهم الآثار الفنية من الأباطرة الساسانيين شابور الأول ، الذى هزم الامبرطور الرومانى فالريان عند مدينـة الرها سنة ٢٦٠ ميلادية ، فخلد الايرانيون هـذا النصر فى نقوشهم المحفورة فى الصخر — ولا سيما فى نقش رستم على مقربة من مدينة برسپوليس ومدينة اصطخر الحالية — ورسموا القيصر الرومانى راكعا أمام عاهلهم الجبار . كما خلّدت الآثار الفنية اسم بهرام جور الذى سارت الركبان بحديث مهارته فى الصيد فرسمه الفنانون الايرانيون فى مناظر الصيد المختلفة.(١)

ولم تكن تلك الحـروب الطويلة فى العصر الساسانى تمنع الشـعب من العنـاية بالفنون الجميـلة ، بل كانت من أهم عوامل الاتصال بين الشعبين

(١) انظر Zaky M. Hassan : Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages ص ٨ — ٩ واللوحة رقم ١

العظيمين فى ذلك الحين: الايرانيين والاغريق، فزاد التبادل الفنى رغم أنف الفريقين، وتسرب الى فنون بيزنطة كثير من الموضوعات الزخرفية الايرانية، ولم تلبث هذه الموضوعات أن اندمجت فى الفنون البيزنطيـة اندماجا تاما، ثم نقلتها أقاليم البحر الأبيض المتوسط التى كانت تابعة لبيزنطة فى ذلك الحين. ويبدو ذلك واضحا فى زخارف كثير من المنسوجات التى عثر عليها المنقبون عن الآثار فى مصر العليا، كما يظهر أيضا فى كثير من الزخارف التى استخدمت فى العصر القبطى، ولا سيما الرسوم المحفورة فى الحجر والخشب.

على أن الحروب الطويلة بين بيزنطة و إيران، فضلا عن الحالة الاجتماعية والدينية فيهما، أنهكت قواهما، فأصبحتا فى بداية القرن السابع الميلادى عاجزتين عن صـد تيار الجيوش العربية التى جمعتها وحدة الاسلام؛ فسقطت إيران، وفقدت استقلالها السياسى، وأصبحت جزءا من الامبراطورية الاسلامية التى أتيح للعرب تشييدها؛ كما فقدت بيزنطة مستعمراتها فى الشرق الأدنى، ولم تنج بنفسها من جيوش المسلمين إلا بفضـل البحر الذى كان يفصلها عنهـم، والذى لم يكن العرب يحسنون ركوبه فى فجر الاسلام.

وقـد كان الفتح الاسـلامى فى إيران أعمق أثرا فى تاريخهـا من فتح الاسكندر؛ بل إنه أقالها من عثرتها؛ فان زوال استقلالها السياسى لم يكن له النتيجة المنتظرة والمنطقية فى اضمحلال مدنيتها وتأخر فنونها. وسبب ذلك أن العرب كانوا قوما عمرت قلوبهم بالايمان وتحلوا بالشجاعة والاقدام؛ ولكنهم أدركوا بما فيهم من حكمة طبيعية موروثة أنهم فى حاجة إلى معونة الايرانيين فى أنظمة الحكم والأساليب الفنية؛ فما كاد عصر بنى أمية ينتهى بمـا حفل به من فتوحات وعصبية للعرب، حتى نقل العباسيون مقر الحكم إلى بغداد،

فكان هذا ايذانا بانتصار إيران فى ميدان الحياة الاجتماعية والفنية والعلمية؛ ولا غرو فقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الايرانيين فى خراسان .

وسرعان ما أصبحت إيران فى طليعـة الأمم الإسلاميـة عناية بتشييد العمائر الفخمة وصـناعة التحف النفيسـة . ولم يكن عسـيرا أن تنعقد لهـا الزعامة فى الفنون الإسلامية؛ فان الشعب الايرانى فنان بالفطرة . وحسبك أن تشاهد بيتا أو قصرا إيرانيا، أو ترى تحفة مصنوعة فى إيران لتدرك ذلك وينكشف لك .

وقصـارى القـول أن تطوّر الفنون القديمـة فى الشرق الأدنى تم على يد الايرانيين ، فكان لهم بعد ذلك القسط الأجزل والقدح المعلّى فى الفنون الاسلاميـة . والواقع أن الترك نقـلوا عنهم معظم أساليبهم الفنيـة ، بينما العـرب أنفسهم لم تكن لهم تقاليـد فنية عريقـة . وقد عقـد ابن خلدون فى مقدّمته فصلا " فى أن المبـانى والمصانع فى الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول " وذكر فيـه أن السبب فى ذلك بداوة العرب و بعدهم عن الصنائع ، وأن الدين كان أوّل الأمر مانعا من المغالاة فى البنيان والاسراف فيه فى غير القصد " فلما بعـد العهد بالدين والتحرّج فى أمثال هـذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصـنائع والمبانى ودعتهم اليهـا أحوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المبانى والمصانع " .

ومما ساعد على ازدهار الطرز الفنية الايرانية أن إيران ، منذ القرن الرابع الهجرى (العـاشر الميلادى) استعادت استقلالها السياسى والثقافى؛ فبعثت المدنية الايرانية، ونمت وترعرعت فى ربوعها الآداب والفنون .